الفصل الثانى

الرحلة والجغرافيا الوصفية

obeikandl.com

obeikandl.com

الجغرافيا الوصفية

مؤلفات عديدة فى مجال الجغرافيا الوصفية أُنجزت فى القرن الرابع الهجرى وما سبقه، وليست كلها مجالا للدراسة، لأن ما يتناول منها فى هذه الدراسة هو تلك التى اعتمد أصحابها على رحلاتهم الشخصية فى تأليفها -حتى لو كان مدى هذه الرحلات قصيرا. وبناء على هذا تخرج كل المؤلفات التى ثبت أن أصحابها لم يقوموا برحلات، أو التى لم يعرف عن أصحابها القيام برحلات.

وغنى عن البيان أن المجال الذى استغل الرحلة الاستغلال الأمثل كان المجال الجغرافى، ذلك المجال الذى اعتمد على نواة صالحة، شدت من أزره وأكسبته القبول والشرعية.

وقد تمثلت تلك النواة فى «آثار فريدة ربما كانت الوحيدة من نوعها فى الأدب العالمى، وكما هو معروف فإن القالب الأساسى الذى صيغ فيه الشعر العربى كان القصيدة التى كان القسم الأول منها يفرد -عادة- لذكر المحبوب و«الأطلال» حيث كانت تنزل قبيلته وقبيلة الشاعر من وقت لآخر. هذا القسم من القصيدة -المعروف بالنسيب- كثيرا ما ورد فيه ذكر لأكثر من موضع أو موضعين جغرافيين يمكن فى أغلب الأحوال تحديد موقعهما.. وفى القرن التاسع (الثالث الهجرى) - عندما أخذ العلماء العرب يتتبعون مآثر أسلافهم عرب الجاهلية -كانت هذه المادة هى القاعدة المتينة التى قامت عليها الرسائل العديدة التى لاتقع تحت حصر من طراز «كتاب مياه وجبال بلاد العرب»، و«كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها»، وهى رسائل غلب عليها الطابع اللغوى أكثر من الطابع الجغرافى، ولكنها مهدت الطريق شيئا فشيئا إلى ظهور الأدب الجغرافى»[1].

والذى لاشك فيه أن الصلة بين الرحلة والجغرافيا قوية، حتى إن باحثا جغرافيا سمى أحد كتبه: «الرحلة عين الجغرافيا المبصرة فى الدراسة الميدانية».

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي ١/٤٣ - ٤٤.

ونتيجة لهذه الصلة القوية شهدت الجغرافيا العربية طفرات كبيرة -كما وكيفا- وبدا أنها فى طريقها للازدهار، وبالفعل ازدهرت وتقدمت، وراح البعض يلتمس لهذا الازدهار تفسيرا؛ فقال المستشرق «جويدى» -على سبيل المثال- «مما لاريب فيه أن مؤلفات العرب فى الجغرافيا إبان العصور الوسطى من أجمل ما أُلف فى هذا العلم، وذلك لاستيفاء شروط ثلاثة: اتساع المملكة، والتجارة وسعة العيش، والفطنة والذكاء»(١).

ولكن.. يشار -فى هذا الصدد- إلى أن المعرفة الجغرافية لم تكن «هدفا أو غاية مباشرة نظمت من أجلها الرحلة فى البر أو فى البحر. ولكن الذى ندعيه ونؤكد عليه حقا هو أن المصلحة المشتركة قد جمعت -من غير قصد مباشر- بين هدف كل أو أى رحلة من جانب، وهدف الرؤية الجغرافية من جانب آخر. ويعنى ذلك الجمع بين هذين الهدفين شكلا من أشكال الانتفاع المتبادل فيما بينهما»(٢).

بعبارة أخرى، كانت الجغرافيا العربية جغرافيا عملية، لم تطمئن إلى التراث الجغرافى العالمى الذى وصلها، فحاولت تقويمه وتسديد خطاه على الطريق الصحيح، واستكمال ماينقصه، فلما تم ذلك انتقلت إلى طور الاعتماد على الذات، والإبداع الخلاق الذى يضيف ويفسر. وكان الانتقال إلى هذا الطور أمرا طبيعيا بسبب توفر علماء أفذاذ أوقفوا حياتهم على خدمة تلك الجغرافيا العملية.

ولعل الملاحظ - فى هذا الصدد - أن الجغرافيين العرب توقفوا كثيرا عند «بطلميوس» وكتابه «المجسطى»، ثم لم يلبثوا أن تجاوزوه، وارتادوا آفاقا جديدة؛ فعملوا على تقويمه وإصلاحه. وقد تتبع صاحب «الفهرست» ترجمات الكتاب والمراحل التى مرت به، مما يشى بالأهمية التى أولوها له(٣).

لقد ساعد عدم تسليم العرب بالنظريات السابقة -عن الجغرافيا- على تنشيط بحثهم العلمى الذى لم يغفل هذه النظريات إغفالا تامًا، ومن ثم فقد شرعوا

---

(١) أدبيات الجغرافيا والتاريخ، جويدى ٢.

(٢) عالم الفكر مرجع سابق د/صلاح الدين الشامى ١٤-١٥.

(٣) الفهرست ـ ط إيران، ٣٢٨.

يستغلون الرحلة، وكان تنبههم لما فى الرحلة من مزايا خيرا على الفرعين كليهما. ولم يمض وقت طويل على هذا الارتباط الهادف حتى تعرف العرب على ما يمكن التعرف عليه –من الكرة الأرضية– تعرف مشاهدة ومعاينة.

لكن... يؤخذ على الجغرافيين العرب أنهم لم يستفيدوا من تجاربهم العملية فى نظرياتهم، رغم أنها «كثيرا ما أدت إلى استكمال تلك النظريات ـ السابقة ـ وتعديلها، بل حتى إلى صرف النظر عنها، أضف إلى هذا أن نظرياتهم العلمية لم ترق إلى مستوى تجربتهم العملية»(١).

والغريب ـ بعد ذلك ـ أن نظرية عربية غير صحيحة، وخطأ حسابيا، أديا إلى اكتشاف العالم الجديد بأسره: النظرية يطلق عليها اسم: «قبة الأرين» والخطأ نتج عن عدم حساب الفرق بين الميل العربى والميل الأوربى فى حساب طول الدرجة، وبالتالى «كان تقدير المسافة بين سواحل أوروبا الغربية وسواحل آسيا الشرقية أقل بكثير من الواقع، ولعل «كولومبس» لو علم بحقيقة الأمر منذ البداية، لما أقدم على ركوب المحيط على سفنه الصغيرة التى لم يكن بوسعها حمل المئونة اللازمة لمثل هذه المهمة»(٢).

وقد أدى النشاط العلمى والنظرى إلى نشوء مدارس جغرافية متعددة حاول ياقوت تصنيفها تحت قسمين كبيرين: الأول اهتم أصحابه بالمعمور من الأرض كلها، والثانى ـ وهم طبقة أهل الأدب ـ اقتصروا على الأماكن العربية، والبدوية منها بخاصة، قال:«وطبقة أخرى إسلاميون سلكوا قريبا من طريقة أولئك (اليونانيين) من ذكر البلاد والممالك، وعينوا مسافة الطرق والمسالك، وهم: ابن خرداذبه، وأحمد بن واضح، والجيهانى، وابن الفقيه، وأبو زيد البلخى، وأبو إسحاق الإصطخرى، وابن حوقل، وأبو عبد الله البشارى، والحسن بن محمد المهلبى، وابن أبى عون البغدادى، وأبو عبيد البكرى ـ له كتاب سماه «المسالك والممالك». أما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة أهل الأدب، وهم: أبو

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١ / ٢٣ .
(٢) السابق ١ / ٨٤، وانظر كذلك ١ / ٧٥ .

سعيد الأصمعى.. وأبو عبيد السكونى، والحسن بن أحمد الهمدانى ـ له كتاب جزيرة العرب، وأبو الأشعث الكندى فى «جبال تهامة»[1] (رواية عن عرام بن الأصبغ).. إلخ.

والطبقة الأخيرة يمكن أن يطلق عليها أحد اسمين: مدرسة الجغرافيا اللغوية، أو مدرسة الجغرافيا الإقليمية.

وتصبح صورة الاجتهاد الجغرافى العربى كما يلى:

١ ـ فريق اقتصر على وصف الجزيرة العربية والبوادى.

٢ ـ فريق اقتصر فى وصفه على المملكة الإسلامية.

٣ ـ فريق جعل همه وصف المعروف من المعمورة.

وانقسم كل من الفريقين:الثالث والثانى إلى اتجاهين:

(أ) الاتجاه الأول يرى ـ تبعا للمعتقدات الفارسية ـ أن العراق يمثل مركز المعمورة، ومن ثم يبدأ بوصف العراق، ثم ينتقل إلى الأقاليم الأخرى.

(ب) الاتجاه الثانى، ويرى أن مكة المكرمة هى مركز المعمورة، ومن ثم يبدأ بوصفها ووصف شبه الجزيرة العربية.ولعل التزام هذه التقسيمات ـ أو المدارس ـ كان فى صالح المعرفة الجغرافية، وعلى حساب أدب الرحلة، وكان الغالب ـ آنذاك ـ أن يبرز جانب على حساب الآخر دون أن يلغيه؛ ولذلك تعايشت الجغرافيا كعلم، مع الرحلة كأدب.

ـ ١ ـ

من الكتب التى دونها صاحبها اعتمادا على رحلات متعددة كتاب «أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من المياه»، لعرام بن الأصبغ السلمى.

---

(١) معجم البلدان ١١/١، أنظر كذلك فى كتب البلدان الإشارات المهمة لصاحب الفهرست ص ١٠٩، ١٢٦، ١٢٧، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧.

وهذا الكتاب صنف ياقوت صاحبه فى طبقة «أهل الأدب»، ومنحه قدرا كبيرا من الثقة، وتمثلت تلك الثقة فى استشهاده بما يزيد عن سبعين موضعا من كتاب عـرام (انظر ـ مـثـلا ـ ١٥٢/١، ١، ٧٨، ١١٩/١، ١٩٢/١، ١/ ٢٤٨، ١/ ٢٥٤، ٣٠٢/١، ١/ ٣٧٢، ١/ ٤٠١.. إلخ) كما تمثلت فى تفضيل آرائه على آراء غيره لكون «الصواب عندنا قول عرام، لأنه بدوى من تلك البلاد، وهو أعرف بشجر بلاده»[١].

وعرام هذا «أحد العرب الذين استقدمهم عبد الله بن طاهر إلى نيسابور»[٢]. وهو «لما أبصر إقبال الناس على مثل هذه الموضوعات ـ اللغوية الجغرافية ـ أملى فى سن الشيخوخة (بعد عام ٢٣١هـ٨٤٥) «كتاب أسماء جبال تهامة ومكانها (سكانها)، معتمدا فى ذلك على معرفته الجيدة بمواضع جزيرة العرب. وقد نال مصنفه انتشارا وصيتا واسعين، ورواه علماء مختلفون، وقد حفظت لنا من مصنف هذا الأعرابى مقتطفات هامة فى المعجمين الجغرافيين للبكرى وياقوت»[٣]. وقد أكد عبد السلام هارون ـ محقق الكتاب ـ على أنه «أحد أعراب بنى سليم ممن كانوا يطوفون بالبلدان، ويتعرفون مسالكها، فيكتسبون بذلك خبرة صادقة»[٤].

عنوان الكتاب يوحى بأنه يقتصر على ذكر تهامة فحسب، ولكن الواقع يشهد بأن الكتاب ينقسم إلى قسمين: الأول خاص بتهامة، والثانى يخص الحجاز عامة، ومكة والمدينة خاصة، بل إن الكتاب يختم بهذه العبارة: «تم كتاب أسماء جبال مكة والمدينة وما يتصل بهما. وقد رجح عبد السلام هارون أن يكون ذلك مجرد استطراد، وأن كلمة «كتاب» لا تعنى إلا «ما كتبه فى هذه الناحية» غير أن تقسيم الكتاب إلى جزءين، وتصدير كل منهما باسم عرام يؤدى إلى القول بأنه أُملى فى مجلسين مختلفين، اختص كل مجلس بجزء.

---

(١) معجم البلدان ٧١/١.

(٢) الأعراب الرواة. د/ عبد الحميد الشلقانى. دار المعارف ١٩٧٧، ص٢١٢.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى ١٢٧/١، وانظر: التراث الجغرافى اللغوى ١٥ ـ ١٧.

(٤) كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، وما فيها من القرى، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من الحياة. عرام بن الأصبغ تحقيق الأستاذ/ عبد السلام هارون، القاهرة، ص٦.

والكتاب يمثل طبقة «أهل الأدب» أو «الجغرافيين اللغويين» خير تمثيل، وتكاد معالم هذه الطبقة تتجسد فيه؛ فالإغفال شبه التام لشخص المؤلف ظاهرة أساسية لدى هذه الطبقة، وكذلك الاستشهاد بالشعر كلما أمكن، بذكر اسم الشاعر حينا، وإغفاله أحيانا، كما يستشهد بما ورد من هذه المواضع فى القرآن الكريم والحديث الشريف، ويهتم بشرح الألفاظ المبهمة أو أسماء الأعلام شرحا لغويا، بل إنه قد «يضطر إلى تعريف الكلمة العربية القحة بأخرى ليست كذلك، كأن يقول: «وفى كل جبال تهامة الشقاح نبت فى حرودها وأسفلها، والحرود: الجنوب. والحماط: التين. والشقاح: الريباس «فالكلمة الأخيرة فارسية... ولم يكن الأعراب الخلص يعرفون غير العربية الأعرابية. هل اكتسب عرام هذه الفارسية لأنه عاش مع عبد الله ابن طاهر فى نيسابور؟»[1].

والكتاب لا يتبع منهجا محددا سوى تقسيمه قسمين كبيرين، أما ذكر ما يحويه كل قسم فلا يحكمه نهج، بل يسيطر عليه الاستطراد والتداعى.

وعلى غرار الجغرافيين يحدد عرام المسافة بين كل موضع وآخر: بالمرحلة إذا كانا متباعدين، وبالميل إذا كانا قريبين، وبالأيام أحيانا.

كما يدلل على حظ الموضع من الحضارة بذكر ما إذا كان حاويا لمنبر أو لا. وقد يذكر أسماء حكام تلك المواضع ما أسعفته الذاكرة. غير أن ما كان يحرص عليه دوما أن يذكر اسم القبائل التى تقطن تلك المواضع. وقد يحرص على ذكر خاصة بعينها تدلل على رؤية حقيقية لذلك الموضع، كقوله فى «حيف سلام»: «وسلام هذا رجل من أغنياء هذا البلد، من الأنصار»[2]. وفى جبال السراة أشجار «لا يكاد أحد يرتقيها إلا بعد جهد، وإليها تأوى القرود، وإفسادها على أصحاب قصب السكر كثير»[3].

وطبيعى ألا يتوسل عرام بأدوات الفن؛ لأنه يقصد إلى تعليم، وتحديد دقيق. ومن

---

(١) الأعراب الرواة ٢١٦.

(٢) أسماء جبال تهامة ٣٥.

(٣) نفسه ٤١.

ثم انطبع أسلوبه بالطابع العلمى الذى يهدف إلى التوصيل ـ دونما حرص على إمتاع. وللتدليل على ذلك، ولتقديم صورة صادقة عن الكتاب وأسلوبه، ننقل الصفحات الأولى منه: «أسماء جبال تهامة وسكانها، وما فيها من القرى، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من المياه».

أولها (رضوى) من «ينبع» على يوم، ومن «المدينة» على سبع مراحل ميامنة طريق المدينة، وميامسرة طريق البريداء لمن كان مصعدا إلى مكة، وعلى ليلتين من البحر. وبحذائها (عزور) وبينه وبين «رضوى» طريق المعرفة، تختصره العرب إلى الشام وإلى مكة وإلى المدينة، بين الجبلين شوط فرس. وهما جبلان شاهقان منيعان، لا يرومهما أحد. نباتهما الشوحط والقرظ والرنف، وللضهياء ثمر يشبه العفص لا يؤكل، وليس له طعم ولا ريح.

وفى الجبلين: جميعا مياه أو شال، والوشل: ماء يخرج من شاهقة لا يطورها أحد، ولا يعرف منفجرها. وليس شىء من تلك الأوشال يجاوز الشقة، وأنشد فى الرنف يصف جبلا:

مراتعة رنف فملقى سياله مدافع أوشال يدب معينها

ويسكن ذراهما وأحوازهما نهد وجهينة، فى الوبر خاصة دون المدر، ولهم هناك يسار ظاهر»[1].

- ٢ -

لعل كتاب ابن خرداذبه «المسالك والممالك» أهم ما ألف فى القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى، فقد أخرج ابن خرداذبه «عمله عام (٢٣٢هـ = ٨٤٧م) فى فترة خلافة الواثق بالله، ثم أعاد كتابته عام (٢٧٢ = ٨٨٥) تحت أمر الخليفة المعتمد. ولقد عارض «ماركفارت» رأى «دى خويه» ـ هذا؛ حيث لجأ إلى البرهنة على أنه كان هناك طبعة واحدة لعمل ابن خرداذبه لم تنته قبل عام (٢٧٢ =٨٨٥) ومنذ ظهر كتاب ابن خرداذبه أصبح مرجعا أساسيا اعتمد عليه من جاءوا بعده. وقد دارت حول كتابه حركة نقدية نشطة، فاعتبر المسعودى «من كتبه النفيسة كتابه فى «المسالك والممالك»[2]، بينما ذهب المقدسى إلى أن كتابى

(١) أسماء جبال تهامة ٥ ـ ٧

(٢) مروج الذهب ١٤/١

الجاحظ وابن خرداذبه «مختصران جدا، لا يحصل منهما كثير فائدة»[1].

وفى العصر الحديث قامت دراسات عديدة حول ابن خرداذبه وكتابه ونسخه التى قيل: إنها كانت ثلاثا، كما تم التأكيد على أن النص الذى وصلنا ونشره «دى خويه» نص مختصر.

وابن خرداذبه ـ على عكس كثيرين ـ كان شخصا معروفا متعدد المواهب؛ ولذا فإن المعلومات المتوفرة عنه كثيرة[2].

وميزة كتاب ابن خرداذبه لا تتمثل فى كونه كتاب رحلة يعتمد على نتاج رحلات فحسب، إنما يتمثل ـ أيضا ـ فى احتفاظه بنصوص رحلات نقلها عنه لاحقوه؛ كرحلة محمد بن موسى، ورحلة سلام الترجمان، ومسلم بن أبى مسلم الجرمى، كما ينقل نصوصا عن رحالين مجهولين. ولاشك أن وظيفة «صاحب البريد والخبر بنواحى الجبل» قد مكنته من الحصول على كل هذه التقارير، فضلا عن أن علاقته الوثيقة بالخلفاء جعلت كل الخزائن تحت يده.

غير أن رحلاته لم يظهر أثرها فى ظل الغياب الدائم لشخصه، وهذا واضح فى النص المختصر المتوفر. ولكن لا يمكن الجزم بهذا الغياب إلا إذا توفر النص الأصلى. والكتاب ـ بعد ذلك ـ يقوم «على عنصرين متميزين كل التميز عن بعضهما البعض، فمن ناحية يقابلنا عرض جاف للمادة الرسمية، ولكنه يمتاز بأهمية كبرى، ومن ناحية أخرى نلتقى بمجموعة من الغرائب الجغرافية المختلفة، ولا تحس من جانب المؤلف أية محاولة لصهر هذه المادة وصبها فى قالب متجانس، فضلا عن أن الكتاب يفتقر إلى كثير من ناحية التبويب.. ولاشك أن عدم التناسق فى مادة هذا الكتاب هو المسئول عن التناقض فى حكم الجغرافيين العرب المتأخرين عليه. غير أن تأثيره على الأدب الجغرافى التالى كان كبيرا جدا.. ولم يكن باستطاعة ابن خرداذبه أن يؤسس مدرسة جديدة، غير أن المادة التى جمعها كانت الأساس المتين بالنسبة للكثيرين»[3]. ولعل من الغريب الذى يستحق التسجيل أن

(١) أحسن التقاسيم ٤.

(٢) انظر ـ مثلا ـ تاريخ الأدب الجغرافى ١/١٥٥ ـ ١٥٦، الأغانى ط دار الكتب ١/٣٩ وغيره، مروج الذهب ٤/٢٢٠.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى ١/١٥٨.

صاحب «معجم البلدان» لم يستشهد بآراء ابن خرداذبه وكتابه إلا مرتين فقط.. وهذا أمر يحتاج تفسيرا[1].

وابن خرداذبه متأثر بجغرافيا بطلميوس، بل إنه ادعى ترجمة كتابه، وكان أهم آثار ذلك أنه لم يقتصر على وصف العالم الإسلامى، بل توسع ليشمل كتابه العالم المعروف آنذاك، وكثير مما أورده عن البلاد غير الإسلامية يتسم بالدقة كما يشهد بذلك باحثون كثيرون.

والكتاب يبدأ بمقدمة تقليدية يهدى فيها ابن خرداذبه عمله للخليفة، ثم يشرع فى وصف الأرض بعامة، ويحدد قبلة أهل كل بلد. وبعد ذلك التمهيد القصير يبدأ فى وصف العالم متأثرا بالنظرية الفارسية القديمة أيضا، ويرى ـ خلافا لكثيرين ـ أن سواد العراق ـ وليس مكة ـ هو قلب العالم. وبعد وصفه لسواد العراق الذى أورد فيه أهم مدنه وسكك بريده ومحطاته والمسافات بينها، ينتقل إلى وصف الشرق ـ أى شرق العراق ـ ثم الغرب، فالجربى (بلاد الشمال)، فالتيمن (بلاد الجنوب)، وبعد أن ينتهى من ذلك يذكر سكك البريد فى المملكة، وبعض الطرق التى يسلكها التجار.

يمكن اعتبار ما سبق القسم الأول من الكتاب، أما القسم الثانى فيركز على العجائب، مصنفا إياها إلى: عجائب الأرض ـ عجائب النبات ـ عجائب طبائع البلدان، وأخيرا يورد بعض العجائب المنوعة التى لا تخضع لتصنيف، ويلمح فى هذا المسلك توجه ابن خرداذبه نحو قارئيه، متحفا إياهم بما يرضى أذواقهم، وبما يخفف جفاف المادة ـ فيما يظن.

وبالطبع، تتباين اللغة المستخدمة فى القسم الأول مع اللغة المستخدمة فى القسم الثانى، فلغة القسم الأول جافة تماما لاعتمادها على الأرقام، ولا يخفف من جفافها إلا بعض التقارير التى ينقلها عن غيره، والاستشهادات الشعرية الكثيرة، أما القسم الثانى فتخف فيه وطأة هذا الجفاف، ويعود ابن خرداذبه إلى طبيعته الأدبية التى أهلته لأن يكون مؤلفا، ثم نديما للخلفاء.

---

(١) معجم البلدان ٣٤٧/٤، ١٧٣/٥.

إن القيمة الأساسية لابن خرداذبه ليست فى كتابه- كنص، وإنما فى كتابه كفكرة أولية مبدئية مهدت لكتب الرحلة الحقيقية، وأعطت تقارير الرحلات شيئا من الاحترام والثقة، ففتح الباب أمام الرحالين ليدونوا رحلاتهم، ثم ليطوروها حتى تصل إلى درجة مرضية.

-٣-

ويمثل وصف السرخسى لرحلة المعتضد التى تمت عام (٢٧١هـ - ٨٨٤م) شاهدا على ما أصاب التراث الجغرافى وتراث أدب الرحلات من إهمال، فقد ضاع النص الأصلى، ولم يصلنا سوى شذرات من الكتاب الذى وصف فيه رحلة المعتضد «إلى الرملة لحرب خمارويه بن أحمد بن طولون. وكان السرخسى فى خدمته، ذكر فيه جميع ما شاهده فى طريقه: فى مضيه وعوده»(١).

والسرخسى: أحمد بن محمد بن الطيب (توفى ٢٨٦هـ=٨٩٩) «يمثل نوعا نادرا من الكتاب فى ميدان الأدب العربى، وذلك بجمعه على السواء بين الاهتمام بالفلسفة والعلوم الدقيقة من جهة ، والأدب الفنى من جهة أخرى. ويمكن إرجاع اهتمامه بالأدب إلى اتصاله ببلاط الخليفة المعتضد الذى راح ضحية لسخطه عندما كان يشغل - فى آخر سنى حياته - وظيفة المحتسب ببغداد»(٢).

ويكاد يكون ياقوت المصدر الوحيد لهذا الوصف؛ إذ أورد حوالى سبع عشرة قطعة - فى أجزاء معجمة الخمسة، وبيانها كالتالى: (١٣٢/١، ١٣٣/١، ١٤٧/١، ١٨٢/١، ٢٣٩/١، ١ ٢٧٧، ٣١٣/١، ٣٨٧/١، ٣٠٠/٢، ٣١٥/٢، ٤٦٦/٢، ١٤/٣، ١٥/٣، ١٨٤/٣، ٤٣٩/٤، ٢٨٨/٥، ٣٩٩/٥).

وتلك المتقطفات التى ينقلها ياقوت قصيرة فى أغلب المواضع، ولا تظهر فيها شخصية السرخسى أو شخصية الخليفة نفسه. ومن يعد إلى النصوص السالفة يلحظ أنها تقتصر على وصف موقع البلاد، والمسافات بينها، ولا تتعدى إلى وصف الناس بحال، كما أن الانطباعات الشخصية لا مكان لها، ولعل هذا يشير إلى أن النص

(١) معجم البلدان ١٣٢/١.
(٢) تاريخ الأدب الجغرافى ١٣١/١.

الأصلى يتبع القاعدة نفسها، ولا يكاد يقدم شيئا جديدا يسهم فى تقدم أدب الرحلة، وربما كان سبب ذلك أن المؤلف عالم فيلسوف، يقصد إلى الحقائق المجردة، ويتعامل دوما بلغة الأرقام، ويستخدم الأسلوب العلمى أداة.

ينقل ياقوت عنه أن بين «برقعيد» و «أذرمة»، خمسة فراسخ، وفى أذرمة نهر يشقها وينفذ إلى آخرها وإلى صحرائها، يأخذ من عين على رأس فرسخين منها، وعليه فى وسط المدينة قنطرة معقودة بالصخر والجص، وعليه رحى ماء، وعليه سوران: واحد دون الآخر، وفيها رحبات وسوق قدر مائتى حانوت، ولها باب حديد، ومن خارج السور خندق يحيط بالمدينة. وبينها وبين السميعية قرية الهيثم بن معمر فرسخ عرضا، وبينها وبين مدينة سنجار فى العرض عشرة فراسخ. انتهى قول السرخسى.

ولعل هذا النص الطويل ـ بالقياس إلى غيره ـ يمثل أسلوب السرخسى ونهجه خير تمثيل.

-٤-

خدمة جليلة طوق بها المستشرق الهولندى «دى خويه» جيد الأدب العربى بنشره سبعة مجلدات تحوى ثمانية كتب فيما أسماه «المكتبة الجغرافية العربية»، وأول هذه الكتب من حيث زمن التأليف كتاب «البلدان» للمؤرخ المشهور «اليعقوبى»، فقد ألفه حوالى عام (٢٧٨هـ=٨٩١م) قبل وفاته بأعوام قليلة.

واسم اليعقوبى: «أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب اليعقوبى العباسى، من ذرية واضح مولى المنصور. وكان واضح يتشيع سرا على الرغم من صلاته الوثيقة العباسيين ومناصبه الرفيعة.. وقد عوقب على تشيعه بالموت بعد أن يسر لإدريسى علوى الفرار إلى المغرب.. وقد توارثت أسرته التشيع، فاعترف أحمد بولائه للموسوية»[1]. وعلى الرغم «من أن مولده ببغداد، فقد غادرها مبكرا، فعاش طويلا بأرمينيا وخراسان، وزار الهند وفلسطين، وتمتع برعاية الطولونيين أثناء

(١) تاريخ الأدب العربى ٣٦/٤، وانظر كذلك: دراسات عن المؤرخين العرب مرجليوث ترجمة د/ حسين نصار. دار الثقافة د. ت ١٣٩، الجغرافيا العربية ٦٤، جهود المسلمين فى الجغرافيا ٤٥، مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ٨١.

مقامه الطويل بمصر والمغرب»[1].

وما نشر من كتابه يمثل الجزء الأكبر، وبعض أقسامه ضاع، كما ضاعت بعض فقرات من أقسام بعينها.

ومصادر الكتاب متعددة، غير أن أهمها رحلاته التى اتسع نطاقها الزمنى والمكانى، وقد عبر عن ذلك بنفسه فى مقدمة كتابه، فقال:

«إنى عنيت فى عنفوان شبابى، وعند احتيال سنى وحدة ذهنى، بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأنى سافرت حديث السن، واتصلت أسفارى، ودام تغربى، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره، فإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره، سألته عن بلده ذلك.. ثم أثبت كل ما يخبرنى به من أثق بصدقه، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم. حتى سألت خلقا كثيرا، وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم، وذكرت من فتح بلدا بلدا، وجند مصرا مصرا من الخلفاء والأمراء، ومبلغ خراجه وما يرتفع من أمواله.

فلم أزل أكتب هذه الأخبار وأؤلف هذا الكتاب دهرا طويلا، وأضيف كل خبر إلى بلده، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته. وعلمت أنه لا يحيط المخلوق بالغاية، ولا يبلغ البشر النهاية، وليست شريعة لابد من تمامها.. فجعلنا كتابنا هذا مختصرا لأخبار البلدان. فإن وقف أحد من أخبار بلد مما ذكرنا على مالم نضمنه كتابنا هذا، فلم نقصد أن يحيط بكل شىء، وقد قال الحكيم: ليس طلبى للعلم طمعا فى بلوغ قاصيته، واستيلاء على نهايته، ولكن معرفة مالم يسع جهله، ولا يحسن بالعاقل خلافه. وقد ذكرت أسماء الأمصار والأجناد والكور، وما فى كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج، ومن يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم، ومسافة ما بين البلد والبلد، والمصر والمصر، ومن فتحه من قادة جيوش الإسلام، وتاريخ ذلك وسنته

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١٥٨/١

وأوقاته ومبلغ خراجه، وسهله وجبله وبره وبحره، وهواءه فى شدة حره وبرده، ومياهه وشربه»[1].

إن المتوقع بعد هذه المقدمة أن يكون وصف اليعقوبى للبلدان ذاتيا، بحيث يكون إطار الرحلة حاويا لها، ومن ثم تكون شخصيته حاضرة، غير أن ذلك لم يحدث، وربما كان السبب التزامه بنهج جغرافى خارجى، مع تعدد رحلاته التى لم تلتزم خط سير موحدا. والظاهرة الواضحة أن اليعقوبى يجيد فى وصف البلاد التى أقام فيها فترات طويلة، ويتوسع فى ذكر ما يخصها. وباستثناء وصفه المسهب «لبغداد» و «سرمن رأى» تستحوذ مصر على اهتمامه، فيفرد لها حوالى اثنتى عشرة صفحة ويبدو أن فترة إقامته بمصر كانت محببة إليه، وأنه كان يكن حبا شديدا لبنى طولون، وثمه حكاية يرويها المقريزى فى خططه تؤكد ذلك، وتظهر موهبته الشعرية.

وسواء أكان الوصف مختصرا أو مسهبا فإن شخص اليعقوبى لا يظهر فيه، ومن ثم فإنه من الممكن نسبة النص إلى أى مؤلف غيره، دون أن يفطن إلى ذلك أحد.

وبسبب هذا الغياب المتعمد لشخصه أسف آدم متز لأنه «لم يخطر له أن يؤلف كتاب رحلة على الحقيقة، يصف فيه تجاربه الخاصة وأحوال الناس، وما لقيه فى أسفاره، ولم يكن جغرافيو ذلك العهد قد بلغوا هذه الدرجة من اعتقاد الطرافة فى أنفسهم؛ فلم يقيموا لأنفسهم وزنا فى هذه الناحية»[2].

وبرغم أن المفترض كون الكتاب كتابا جغرافيا معتمدا على رحلات، ومن ثم يسيطر عليه الطابعان كلاهما أو أحدهما، فإن شيئا من هذا لم يحدث بالدرجة المطلوبة، بل سيطرت ثقافة اليعقوبى التاريخية عليه، فتتبع نشأة المدن أو الولايات، والتطورات التى مرت بها، وأهم حكامها، ليثبت أنه مازال متأثرا بمجال تخصصه الذى جعل من مؤلفه كتابا فى «الجغرافيا التاريخية»

صفة أخرى تميز بها اليعقوبى؛ إذ اعترف «عدد من الباحثين بأمانة اليعقوبى

---

(١) البلدان. اليعقوبى. تحقيق دى خويه؟ ليدن ١٩٦٧، ٢٣٢ ـ ٣٣٣

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٩/٢ ـ ١٠

العلمية، وتفرده بمعلومات وافية لا توجد فى المصادر الأخرى. ويمثل وصفه للخطط التاريخية لبغداد وسامراء أهمية منقطعة النظير، كما يجب ملاحظة أنه ترك وصفا لأفريقيا قبل انفصالها مباشرة عن بقية أرض الخلافة على يد الفاطميين، وأنه أورد أخبارا قيمة عن الأندلس»[1]. ويمكن تقسيم الكتاب إلى ستة أقسام رئيسية:

١ ـ وصف بغداد.

٢ ـ وصف سامراء.

٣ ـ وصف ربع المشرق، أو بلاد فارس وما يليها.

٤ ـ وصف ربع القبلة، أو الربع الجنوبى.

٥ ـ وصف الربع الشمالى، أو «الجربى».

٦ ـ وصف ربع المغرب، متضمنا الأندلس.

وهذا التصنيف لم يُسبق إليه اليعقوبى، وخاصة حينما يصنف كل ربع تصنيفا داخليا حسب ولاياته. ويلاحظ أنه متأثر بالنظريات الفارسية التى تجعل من العراق وبلاد فارس مركز العالم، فهو قد بدأ بالعراق لأنها ـ كما يقول: «وسط الدنيا وسرة الأرض، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى. ولأن سلفى كانوا القائمين بها، وأحدهم تولى أمرها»[2].

ووصفه لبغداد وسامراء وصف مفصل دقيق، والمادة التى يقدمها لدارسى الحضارات ثرية للغاية، ويبدو من وصفه للربع الشرقى أنه زار كثيرا من مدنه، وتعرف عليها مباشرة، ولذلك أفلتت منه بعض الإشارات الشخصية القليلة. وفى الجزء الجنوبى لم يتوقف كثيرا ـ كعادة غيره ـ عند المسجد الحرام، كما فعل معاصره ابن رسته– مثلا.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١/١٦٠

(٢) البلدان ٢٣٣

أما وصفه لبلاد الأندلس فيعتمد على الروايات التى سمعها أثناء تجواله ببلاد المغرب، ومما تجدر الإشارة إليه أنه نص على أن معلوماته عن بعض بلاد المغرب مصدرها «أبو معبد عبد الرحمن بن رستم التاهرتى»[1]، وتكاد تكون تلك الإشارة الوحيدة إلى مصدر من مصادره الحية.

لقد كان اليعقوبى موظفا رسميا، ومن ثم فقد انتمى لفئة بعينها، وتراءى له أن يقدم لتلك الفئة خلاصة تجاربه ومعارفه فى كتاب يكون هاديا لهم فى أعمالهم، وتطبيقا لذلك «نجد أنه لا يكترث بالنظرية الجغرافية بل هدفه إعطاء لوحة عامة للبلدان لمن يريدون الإلمام السريع بها.. ويحس فى الكتاب نزعة المؤلف إلى التحليل العقلى، ولا عجب، فهو يخلو من أى أثر للعجائب التى افتتن بها الآخرون»[2].

وقد انعكس هذا الهدف على أسلوب التناول؛ فجاء حاملا لخصائص النثر العلمى لذلك العصر، ذلك النثر الذى كان فى طريقه لاتخاذ صورة نهائية يلتزمها كتاب هذا النوع.

ولعل نمط «فضائل البلدان» كان ماثلا فى ذهن اليعقوبى فزود كتابه ببعض نماذجه، وأوضح هذه النماذج ذكره لفضائل العراق مقابلة مع مساوىء غيرها، وفى هذا الوصف القصير تتضح بعض معالم هذا النمط، يقول:

«فلما أفضت الخلافة إلى بنى عم الرسول (صلى الله عليه وآله) من ولد العباس بن عبد المطلب، عرفوا ـ بحسن تمييزهم وصحة عقولهم وكمال آرائهم ـ فضل العراق وجلالتها وسعتها ووسطها للدنيا، وأنها ليست كالشام الوبيئة الهواء، الضيقة المنازل، الحزنة الأرض، المتصلة الطواعين الجافية الأهل. ولا كمصر المتغيرة الهواء، الكثيرة الوباء، التى إنما هى بحر رطب عفن، كثير البخارات الردية التى تولد الأدواء وتفسد الغذاء، وبين الجبل الصلد اليابس. الذى ليبسته ولموحته وفساده لا ينبت فيه خضر،ولا ينفجر فيه عين ماء. ولا كأفريقيا البعيدة عن جزيرة الإسلام، وعن البيت الحرام، الجافية الأهل، الكثيرة العدو. وكأرمينيا الباردة الصاردة الحزنة

---

(١) السابق ٣٥٨

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى ١٦١/١.

التى يحيط بها الأعداء. ولا كمثل كور الجبل الحزنة الخشنة»[1].

إن كتاب اليعقوبى يمثل حلفا ثلاثيا بين الجغرافيا والتاريخ والرحلة، والواضح أن الرحلة مهضوم حقها، وهكذا حالها عندما ترتبط بغيرها من فروع شجرة الأدب، إذ تصبح الطرف الأضعف.

- ٥ -

ويعتبر نهج ابن الفقيه الهمذانى فى كتابه «البلدان» نموذجا للنهج الموسوعى المغلف بإطار جغرافى؛ فقد حاول فى كتابه هذا ـ الذى ألف مع نهاية القرن الثالث الهجرى ـ أن يجمع المادة الجغرافية المتوفرة حتى عصره، ولذلك فليس غريبا أن نجده معتمدا على كل ـ أوجل - الكتب السابقة عليه، مما ساعد على حفظ قطع من كتب كثيرة ضائعة.

وكتاب «البلدان» الأصلى لم يصلنا، وإنما وصلنا مختصره الذى قام به على بن الحسن الشيزارى عام (٤١٣هـ=١٠٢٢م). ويدل على ذلك أيضا ما ذكره صاحب «الفهرست» من أنه لم يعرف له إلا كتابين «كتاب البلدان نحو ألف ورقة ، أخذه من كتب الناس، وسلخ كتاب الجيهانى، وكتاب ذكر الشعراء المحدثين والبلغاء منهم والمفحمين»[2].

ويعد الكتاب مصدرا رئيسيا من مصادر ياقوت فى معجمه، بل يكاد يكون المصدر الجغرافى الأول له، فقد تعددت نقوله عنه المائة، وميزة هذه النصوص المنقولة أنها من الكتاب الأصلى. وقد تراوح موقف ياقوت منها بين التصديق والتشكيك والتكذيب[3].

وليس ثمة ما يدعو للجزم بأن الكتاب يحتوى حصاد رحلات قام بها ابن الفقيه ـ أو العكس، لضياع الكتاب الأصلى، ولكن الثابت أنه اتخذ من الإطار الجغرافى وسيلة لتضمين كل ما يتعلق بالبلد أو الولاية التى يتحدث عنها؛ لذلك ليس غريبا

(١) البلدان. اليعقوبى. ليدن ١٩٦٧ . ص٢٣٦

(٢) الفهرست ١٧١ .

(٣) انظر ـ مثلا ـ فى معجم البلدان: ٢/٣٤٥، ٤/٤٥٢، ٥/٢٩٥.

أن يحتوى الكتاب على مادة شعرية كبيرة، وأن يغلب عليه أسلوب الاستطراد المقصود، غير أن المادة ذات القيمة العالية التى يحويها الكتاب هى تلك المناظرات التى نقلها، والتى كانت تعقد بين اثنين أو أكثر، يتحدث كل منهم عن فضائل بلده ومساوىء بلاد الآخرين. ولعل هذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى القول بأنه متأثر بأسلوب الجاحظ، أو هو تلميذ له.

والخلط المنهجى اعترف به ابن الفقيه ـ بطريق غير مباشر ـ فى مقدمته للكتاب التى يقول فيها: «كتابى هذا يشتمل على ضروب من أخبار البلدان وعجائب الكور والبنيان، فمن نظر فيه من أهل المعرفة والأدب فليتأمله بعين الإنصاف، وليعرنا فيه حسن محضره، وجميل رأيه.. ويهب زللى لاعترافى، وإغفالى لإقرارى، فإنى إنما ألحقت فى هذا ما أدركه حفظى، وحصره سمعى من الأخبار والأشعار والشواهد والأمثال»(١).

وبسبب هذا النهج اعتبر «كراتشكوفسكى» كتابه «مجموعة أدبية عن بلاد العالم الإسلامى، تزخر بكمية كبيرة من الشعر والقصص، وهو عبارة عن نخبة مختارة من الطرائف الأدبية من أجل القارىء العام، لا تمس الجغرافيا أو الأسماء الجغرافية إلا من بعيد»(٢). كما نقده المقدسى نقدا لاذعا، لأنه «سلك طريقة أخرى، ولم يذكر إلا المدائن العظيمة، ولم يرتب الكور والأجناد، وأدخل فى كتابه مالا يليق به من العلوم: مرة يزهد فى الدنيا، وتارة يرغب فيها، ودفعة يبكى، وحينا يضحك ويلهى»(٣).

لقد مثل ابن الفقيه بكتابه هذا آخر حلقة فى سلسلة الخلط المنهجى.

-٦-

كتاب «صفة جزيرة العرب» لابن الحائك الهمدانى (ت ٣٣٤= ٩٤٥) نال اهتماما كبيرا باعتباره من أفضل ما أنتج العقل العربى فى مجال الجغرافيا عامة،

(١) مختصر كتاب البلدان ابن الفقيه ليدن ١٩٦٧ ، ص ٢٢، وانظر كذلك ص ١٩٣
(٢) تاريخ الأدب الجغرافى ١٦٣/١
(٣) أحسن التقاسيم ص٥.

والجغرافيا الإقليمية خاصة، إذ حصر الهمدانى مجاله فى الجزيرة العربية فحسب.

الكتاب يعتمد ـ بصفة أساسية ـ على تلك المعلومات التى جمعها الهمدانى فى رحلاته المتعددة، سواء لطلب العلم، أو أثناء القيام بوظيفة نقل الحجاج والتجار، وقد أشار إلى ذلك حين أخبر عن الحجاج أنهم كانوا «يأكلون سفرهم طرية الخبز ويابسة غير متغيرة من صنعاء إلى كتنة، وإلى أبعد، وكنت أنظر إلى التجار إذا حملناهم إلى مكة من صعدة: يأكلون سفرهم طرية إلى نصف الطريق، ويابسة تدق وتذر إلى مكة، وكنا نحن نستعمل فى أسفارنا خبز الملة والسمن واللحم والمهاد، ونرى أن خبز السفرة إذا فت من وعثاء السفر»[1]. ويشير محقق الكتاب إلى أن الهمدانى لم يكن «من أولئك الذين يعتمدون على النقل من الكتب، وإنما كان يجوب آفاق الجزيرة ويدرس آثارها، ويسجل ما رآه رأى العين واختبره بالمشاهدة»[2].

ويبدو أن تكرار الرحلات على وتيرة واحدة قد حفز الهمدانى على التدوين تدوينا علميا مستقصيا، مع الإضافة الدائمة ولكن ـ فى المقابل – أهمل الجانب الذاتى إهمالا يكاد يكون تاما، فلم تند عنه إلا بضع إشارات ذاتية خاصة أو إنسانية عامة. ولا يعنى هذا أن كتابه خلو من كل ما يمت للأدب بصلة، إذ يلفت النظر ذلك الكم الكبير من الشعر الذى يحتوى على أسماء مواضع جغرافية، كما يلفت النظر ذلك الاهتمام الخاص بالرسائل النثرية لأبى بشر بن بكار؛ حيث نقل عنه رسائل عديدة كاملة، ثم حرصه على تضمين أرجوزة الحج لأحمد بن عيسى الرداعى، بعد أن بذل جهدا طيبا من أجل العثور عليها كاملة صحيحة، ثم شرحها.

قد يقال: إن الهمدانى قد وصف أهل الجزيرة وطباعهم فى مقدمة كتابه، وأن هذا الوصف يضم كتابه إلى حظيرة «أدب الرحلة» أو «الأدب الجغرافى» على أقل تقدير، ولكن ينفى هذا أن ذلك الوصف جاء من وجهة نظر فلكية بحتة، دونما اعتماد على ملاحظة مباشرة واستنتاج مبنى على تجارب فعلية، أى أن هذا الوصف نقلى ونظرى فى آن .

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى. تحقيق محمد بن عبد الله بن بلهيد. مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ ص١٩٧.

(٢) السابق ٦

إن الهمدانى «شخصية فذة لوطنى متحمس، وعالم متعدد النواحى، وشاعر.. وهو لم يكن جغرافيا فحسب، بل خبيرا كبيرا بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها ـ خاصة آثارها القديمة»(١).

انعكست شخصية الهمدانى على عمله، فجاء خليطا من الجغرافيا والتاريخ والأدب، يحكم ذلك كله نهج علمى حاول تطبيقه بصرامة ـ وإن أفلت منه الزمام فى بعض الأحيان ـ إن واعيا أو دون وعى ـ مراعاة لاعتبارات عديدة نبه إليها أحيانا، وأغفل التنبيه إليها أخرى، لذلك، ليس غريبا أن يصف موضعا، ثم ينتقل إلى وصف مواضع أخرى ثم يعود للموضع الأول، أو أن يصف الموضع أكثر من مرة لكن.. لابد من الإشارة إلى أنه كان يكتب «علما» فى كل الأحوال، وأن تسرب بعض العناصر الأدبية كان لخدمة هذا العلم، وبذلك تقل قيمتها.

ويتضح تسخيره المادة الشعرية لخدمة الوصف العلمى من ذلك الفصل الذى خصصه لذكر «ما أتى من الشعر جامعا لكثير من مساكن العرب ومسالكها مما تناهى إلينا وسمعناه، وذلك قليل من كثير مما يعلمه العرب لأنه فى خصائص من المواضع»(٢). وطريفة تلك القصائد الثلاث التى نقلها، والتى ضمن فيها كل شاعر المواضع الجغرافية فى دياره كنوع جديد من المفاخرة الشعرية.

ذكر الهمدانى أنه يهدف إلى «ذكر مساكن هذه الجزيرة ومسالكها ومياهها وجبالها ومراعيها وأوديتها، ونسبة كل موضع منها إلى سكانه ومالكه على حد الاختصار، وعلى كم تجزأ هذه الجزيرة من جزء بلدى وفرق عملى وصقع سلطانى وجانب فلوى وحيز بدوى؛ ليكون من نظر فى هذا الكتاب كأنه مكان ذى القرنين مساح الأرض، وتميم الدارى جواب عامرها وخرّيت سامرها، ومشارف أقصاها وأدناها؛ وليعرف وسيع أرض ربه وكثرة خلقه وسعة رزقه، لا إله إلا الله العزيز الحكيم»(٣). وعليه.. قسم الكتاب إلى قسمين: الأول مقدمة أغلبها مستقى من المعارف الفلكية النظرية الذائعة آنذاك ويكثر النقل فيها عن بطلميوس، وحين

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١٧٠ .
(٢) صفة جزيرة العرب ٢٠٤ .
(٣) السابق ٤٦ .

يفرغ منها يذيلها بقول: «تم الكتاب الأول من صفة البلاد، والحمد لله رب العالمين» أما الكتاب الثانى ـ أو القسم الثانى الأكبر ـ فهو الوصف الفعلى للجزيرة، مع تركيز شديد واضح على القسم الجنوبى، وإيجاز غير مناسب فيما عدا ذلك. وربما عاد ذلك إلى المعرفة الجيدة ببلاده التى عاش فيها معظم حياته، واعتزازه بها حتى سمى «لسان اليمن».

وحين التطبيق العملى لنهجه، أعلن الهمدانى أنه سيفصل «صفة كل شق من هذه البلدان منفردة بأسمائها، فما كان منها من بلد ضيق استوعبنا ما فيه، مثل: العروض ونجران. وما كان من بلد واسع تزيد أقل أجزائه على أكثر العروض فإنا نصفة صفة عامة متجاوزة؛ لسعة البلاد وكثرة المساكن»[1] ويعنى هذا أنه يطبق نهجا خارجيا يتخذ من حجم الموضع أساسا لوصفه ـ دون اعتبار لانطباعاته عن هذا المكان، أو لطبيعته وظروفه الخاصة.

وإذا كان يجنح ـ فيما ندر ـ لاستخلاص خصائص عامة لإقليم كبير، فإنه سرعان ما يعود إلى سيرته الأولى، متخذا من الوصف الموضوعى نهجا وأسلوب عمل.

وأغلب مصادر الهمدانى مصادر حية ـ فيما عدا مصادر المقدمة، أهمها ملاحظاته المباشرة، ثم تليها طائفة من الخبراء العارفين بأحوال البلاد ممن يثق فيهم، ومنهم محمد بن عبد الله بن إسماعيل السكسكى(٧٣)، وأحمد بن الحسن العادى الفلجى (١٦١) والفضال الدليل(١٨٧) وعمر بن الشهاب (١٩٥)، ولعل أهم هؤلاء أبو مالك أحمد بن محمد بن سهل بن صباح اليشكرى الذى اعتمد عليه فى وصف البحرين ونواحيها، ومبرره أنه «كان قد سكن هذه المواضع وتجعها ورعاها وسافر فيها وكان بها خبيرا»[2]. أما مالم يصل إليه علمه من مصدر ثقة فإنه يتحرج من الإدلاء فيه برأى؛ ولذا فإنه عندما يتحدث عن خط الاستواء ـ فى المقدمة ـ يذكر ما اطمأن لصحته «أما المساكن فى هذه البلاد على الخط فلست أقدر أن أقول فى ذلك ما أحيط بعلمه؛ لأنه لم يصل إليها

(١) صفة جزيرة العرب ٥١.
(٢) السابق ١٣٦.

ـ إلى هذه الغاية ـ أحد ممن عندنا، وما يقال فهو إلى أن يجرى مجرى الحدس أقرب منه إلى أن يجرى مجرى الخبر عن المشاهدة» (١). وفى مواضع متفرقة يشير الهمدانى إلى كتبه، وينقل عنها، أو يحيل إليها مثل: كتاب الإكليل (٣، ٥٥) وسرائر الحكمة (٥).

إن الهمدانى لم يقصد لمتعة تسببها زينة لفظية، وإنما كان هدفه الأكبر أن ينقل إلى قارئه كل ما جمعه من معلومات عن هذا الإقليم، ولذا فإن استخدامه للغة يكاد يكون مقصورا على أنها أداة للتوصيل فحسب، وليست غاية فى ذاتها. ولكن شخصية الهمدانى الأديب كانت تطل فى بعض الأحيان، فيقصد إلى التأنق، ذلك التأنق الذى يظل فى خدمة هدفه الأساسى ولا يخرج عنه. وفى مواضع قليلة يلجأ للسجع ـ مجاراة لتقاليد عصره، ولعل أهم هذه المواضع ما خصصه لذكر مفاخر الجزيرة العربية التى بها «الوادى المقدس طوى، وطور سيناء، ومسجد إيلياء، وآثار الأنبياء، ومنابت الأتقياء، ومحافد الأصفياء، وعرصة المحشر، وجبال الرحمة.. وبها أفرس من ركب الخيل، فهم لها حزم وأحلاس، وأحسن من امتطى الإبل، فهم لها أرباب وأقياس، وأوفى من تقلد ذمة ، وأبرع من نطق بحكمة، وبها من يعد المئة بين حجة وعمرة.. وبها الممالك القديمة والآثار العظيمة مثل: ناعط وغمدان وهكر وريدان.، وبينون وغيمان، وبرك الغماد، وإرم ذات العماد»(٢).

إن كتاب الهمدانى أنموذج رفيع للبحث العلمى فى القرن الرابع الهجرى، ولا عجب ـ إذا ـ أن يظل محتفظا بالكثير من قيمته العلمية إلى وقتنا هذا.

-٧-

فى عام (٣٧٥هـ = ٩٨٥م) وضع المهلبى مصنفه المعروف «بالعزيزى» نسبة إلى الخليفة الفاطمى «العزيز» (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ = ٩٧٥ ـ ٩٩٦م).

وهذا الكتاب صنف «ياقوت» صاحبه فيمن ذكروا البلاد والممالك، وعينوا

---

(١) صفة جزيرة العرب ١١

(٢) السابقة ٣

مسافة الطرق إليها[1]. وهو تصنيف يتفق مع الاسم الآخر للكتاب، فقد عرف أيضا باسم «المسالك والممالك»، ويبدو أن الاسمين كانا من وضع المؤلف نفسه.

والشائع عن المهلبى أنه مجهول الهوية، بيد أن هذا الرأى ـ الذى قال به باحثون كبار ـ ينطوى على قصور مرده أن الاسم الكامل للمهلبى يرد فى صيغ كثيرة مختلفة فى «معجم البلدان»، هذا بينما يرد الاسم الصحيح كاملا فى «معجم الأدباء» مع ترجمة قصيرة.

فى «معجم البلدان» يرد الاسم على أنه «الحسن (أو الحسين) بن أحمد (أو محمد) المهلبى المصرى، وفى «معجم الأدباء» يصبح أبا الحسن على بن أحمد المهلبى اللغوى، ويتضح أنه كان إماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار.. ومات بمصر فى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة (٩٩٥م).. وذكر على ابن حمزة البصرى النحوى أنه كان لقيطا، وكان له اختصاص بالمتلقب «بالمعز والعزيز» المستوليين على الديار المصرية، ومن جلسائهما الخواص. وأدرك دولة كافور الإخشيدى وله مع أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى قصة»[2].

وكتاب المهلبى مفقود، وصاحب «معجم البلدان» ينقل عنه ما يساعد على وصفه وصفا جزئيا، إذ ينقل عنه ما يزيد عن الخمسين موضعا وقد استطاع «د/ صلاح الدين المنجد» الحصول على مخطوط ليمنى يدعى «محمد بن الحسن الكلاعى» ينقل صاحبه عن المهلبى عدة قطع مصدرا إياها بقوله: قرأت فى كتاب المسالك والممالك «العزيزى» تأليف الحسن بن أحمد المهلبى[3].

والقطع الثلاث التى نقلها الكلاعى تحمل العناوين التالية: صفة بيت المقدس، ولاة مصر ـ وهى قائمة غير دقيقة لولاة مصر اضطر المحقق لتعديلها ـ ثم: صفة دمشق. ومقارنة هذه القطع بما نقله ياقوت عن المهلبى تظهر أن ثمة خلافا كبيرا بين أسلوب هذه وأسلوب تلك؛ ففيما عثر عليه يكثر المهلبى من كلمتى «قيل ـ

---

(١) معجم البلدان ١١/١.

(٢) معجم الأدباء. ياقوت الحموى. مطبعة أحمد فريد رفاعى. ٢٢٤/٢ ـ ٢٢٥.

(٣) قطعة من كتاب مفقود: المسالك والممالك للمهلبى. د/ صلاح الدين المنجد. مجلة معهد المخطوطات العربية، مايو ١٩٥٨، ٤٩.

قالوا» بينما نصوص ياقوت لا تتضح فيها هذه الظاهرة، وهذا يغلب أن تكون نقول «الكلاعى» منحولة على المهلبى، يضاف إلى ذلك أنها أدخل فى التاريخ منها فى «ادب الرحلة» أو «الأدب الجغرافى».

لقد خرج المهلبى بتكليف من الخليفة الفاطمى، وكان هدف الرحلة الأساسى كشف منابع النيل، إضافة إلى التعرف الدقيق على السودان «وبموجب هذا التكليف كانت رحلة المهلبى فى أنحاء السودان بمعناه الجغرافى الفضفاض رحلة سفارة»(١).

ويبدو أنه قدم تقريرا رسميا للخليفة فور عودته، مضمنا إياه كل ما رأى وعلم فى السودان، ثم تراءى له ـ فيما بعد ـ أن يضم إليه ـ أو يضمه إلى ـ محصول خبراته ومشاهداته فى كافة البلاد الإسلامية، فاتخذ من تقرير السودان أساسا أقام عليه بقية كتابه الذى أهداه للخليفة كذلك. وإضافة إلى تركيزه على السودان، حصلت مصر ـ موطنه ـ وقيل إنه شامى ـ على قسط وافر من اهتمامه، كما وصف بعض بلاد الشام والمغرب والجزيرة العربية، وبناء على خبرة شخصية قدم وصفا لمدينة «سامراء» العراقية.

وما ينقله ياقوت قطع لا تتعدى بضعة أسطر إلا فى مواضع قليلة، وقد أدى فصل هذه القطع عن سياقها إلى تقديم صورة مشوهة للكتاب، كما أن الاقتصار على مواضع الاستشهاد أدى إلى التصرف فى النصوص، فضاعت تفاصيل كثيرة.

المهلبى ـ الرحال ـ لم تتضح خصائصه، فصفاته الشخصية وخروجه عن الوصف الجغرافى الجاف لا يظهران إلا فى مواضع نادرة؛ كقوله فى وصف «سامراء»: «وأنا اجتزت» بسر من رأى«منذ صلاة الصبح فى شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليد رفعت عنها للوقت، لم تعدم إلا الأبواب والسقوف.. فمازلنا نسير إلى بعد الظهر حتى انتهينا إلى العمارة منها.. ثم سرنا من الغد على

(١) الرحلة عين الجغرافيا ١٢٥، وتاريخ الأدب الجغرافى ٢٣٠/١، وعصر الدول والإمارات. د/ شوقى ضيف (مصر) ١٠٥.

مثل تلك الحال، فما خرجنا من آثار البناء إلى نحو الظهر. ولاشك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ»[1].

ومن المواضع التى خرج فيها عن الوصف الجغرافى الجاف ما ذكره من أن «من طريف أمر دمياط وتنيس أن الحاكة بها ـ الذين يعملون هذه الثياب الرفيعة ـ قبط من سفلة الناس وأوضعهم وأحطهم مطعما ومشربا. وأكثر أكلهم السمك المملوح والطرى والصير المنتن، وأكثرهم يأكل ولا يغسل يده، ثم يعود إلى تلك الثياب الرفيعة الجليلة القدر فيبطش بها، ويعمل فى غزولها ثم ينقطع الثوب، فلا يشك مقلبه للابتياع أنه قد بخر بالند»[2].

وواضح أن الكتاب كان مقسما إلى أقاليم، يتحدث المهلبى عنها من حيث موقعها والمسافات بينها وأشهر مدنها، كما يتطرق أحيانا ـ إلى بعض خصائصها. وفى وصفه يبدو أسلوبه عمليا، بحيث لا يمكن ملاحظة تكلف عليه.

إن التقويم الصحيح لن يتم إلا بعد ظهور الكتاب كاملا، والتعويل على نصوصه المقتطعة محاولة لإدراك جزء ـ بدلا من ترك الكل، والركون إلى الدعة.

---

(١) معجم البلدان ٣/ ١٧٦.

(٢) السابق ٢/٤٧٣.